الباب الثالث

ومضات بعد الهجرة

الفصل الأول:
موقعة بدر

بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة. حاول بعض من أصحابه المقربين إقناعه صلى الله عليه وسلم ملحين بأن يأذن لهم بمقاتلة قريش التي اضطهدتهم وعذبتهم وظلمتهم ظلماً بيناً بإخراجهم من ديارهم والاستيلاء على أموالهم... وتعذيب وقهر عوائلهم... خاصة وأن قوافلهم.. كانت تمر بالقرب من المدينة عند خروجها من مكة إلى الشام... ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يك ليوافقهم إلا بوحي من الله عز وجل يأذن له بذلك... موضحاً المنهج الذي يتبعه في هذا القتال.. فلما هبط عليه الوحي إذنا له بقتال أعداء الله وأعداء دعوته إذ قال جل وعلا في محكم آياته:

قال تعالى:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾} [الحج: ٣٩ - ٤١].

قال تعالى:{فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا } [النساء: ٨٤].

عسكر النبي صلى الله عليه وسلم بقرب بدر وهي بئر محبوبة لدى القوافل... وكان عدد رجاله من المؤمنين حوالي 313 رجلاً

بينهم عدد غير قليل من الأرقاء والعبيد وكبار السن الغير مؤهلين تأهيلاً كافياً للقتال، وكان جيش قريش حوالي 1000 رجل من أعتى فرسان العرب في القتال مجهزين تجهيزاً كاملاً بالخيل والعتاد والسلاح... ولم يكن هذا العدد منتظراً من قافلة تجارة لولا أن أبا سفيان أرسل إلى قريش فخرجت برجلها وعددها... وبذلك أصبح لا مخرج ولا مناص من القتال.

وشاور الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته وسأل المهاجرين وسأل الأنصار مضيفيه... فقد كان واجباً بالطبع أن يستشير مضيفيه... فأجابه سعد ابن معاذ نائباً عن الأنصار بخطبته التاريخية المأثورة التي أنهاها بقوله: فأمض يا رسول الله لما أردت فنحن معك...).

ولكن كيف يرتب النبي لدخول معركة كفتاها غير متكافئتين على الإطلاق... وهي بعد أول معركة يخوضها المسلمون.. وعليها يتوقف مستقبل الدعوى كله لأن قريش... على حد قول الرسول صلى الله عليه وسلموهو يتضرع إلى ربه يسأله النصر - " قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتكذب رسولك "...

وللإجابة على هذا السؤال... فإنه لا ريب في أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد رأى برهاناً سابقاً من ربه عز وجل يبشره بالنصر فتشجع وقال لرجاله:

(سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم...) أخرجه الشيخان.

استجابوا وأخذ الجيش يتأهب ويترتب لخوض أول معركة مع

مشركي وكفار مكة أعداء الله وأعدائهم الذين طالما اضطهدوهم وعذبوهم وأخرجوهم من ديارهم... ناهبين أموالهم وديارهم... وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة (621م) وكان كل شيء يسير عادياً بناء على خطط أرضية وتفكير بشري... وكان على المؤمنين أن يفكروا لأنفسهم ويبينوا مدى خبرتهم... ولم يكن النبي عالماً بتفاصيل المعركة وإن كان عالماً بناء على الرؤيا التي رآها بنتيجتها...

وفي هذا الموقف المتحرج للغاية أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يسوي الناس صفاً صفاً ليستقبلوا العدو على تعبئة ونظام. وكان في يده عود يشير به إلى من يطلب منه التقدم أو التأخر لاستواء الصفوف وخرج رجل من سواد الجند عن الصف واسمه سواد بن غزية... فدفع النبي بالعود في بطنه ليستوي...

فقال له سواد:

– يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق، والعدل فأصبرني يا رسول الله ومكني من نفسك لاقتص منك!

– أصبر!

ووقف النبي متمهلاً كي يقتص منه سواد دفعة في البطن بدفعة في البطن... ولكن الرجل قال:

– إن عليك قميصاً وليس على قميص!

– فرفع الرسول قميصه عن بطنه متأهباً للقصاص من نفسه!

فعانقه سواد وقبل بطنه العاري... ليكون مس جلده - على حد قوله - آخر عهده بالدنيا قبل الشهادة... وما كان الرسول يتوقع هذا،

بل كان يتوقع المقاصة التي تهيأ لها عن طيب خاطر... فهذا هو رسول الله الذي وصفه خالقه العظيم بأنه على خلق عظيم:{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤]، وهذه عينة من رجاله وأتباعه المؤمنين الذين وصفهم الله جلا وعلا في القرآن الكريم بقوله:

قال تعالى:{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾} [البقرة: ٢٠٧].

وها هو الحباب بن المنذر يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويقترح عليه بلباقة تغيير خطة كان قد فكر فيها فيقبل منه النبي هذا التغيير. يقول الحباب: " يا رسول الله أرأيت هذا المنزل " أي المعسكر " أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ ".

وهنا يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله عز وجل لم يعين له مكاناً ولم يرسم له خطة في هذه الموقعة فيقول: " بل هو الرأي والحرب والمكيدة "

فيرد عليه الحباب: " يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من القلب " أي نتلفه " ثم نبني حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون... " فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لقد أشرت بالرأي " ويقوم فينفذ كل ما نادى به الحباب...

ثم يأتي سعد بن معاذ هو الآخر فيأخذ نصيبه في رسم الخطة ويشير على النبي بما يجب عمله فيقول له: (يا نبي الله ألا تبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقي عدونا...) فيوافق النبي

على هذا الرأي ويبني ذلك العريش " الخيمة " يستظل به ويرقب منه المعركة...

ويأتي الليل في انتظار المعركة كل فريق يتبيت بالآخر في انتظار ساعة الفصل. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم... لازال فكره مشغولاً بالقلة البينة لعدد قواته وتسليحه بالنسبة لجيش أعداء دعوته من كفار ومشركي مكة.. وتدور به شتى الصور... فيستغرق في الصلاة لربه ومناجاته:

(... اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحاربك وتكذب رسولك... اللهم فنصرك الذي وعدتني... اللهم الغداة...)

وهو هنا يؤكد على وعد الله عز وجل له ولكن الصور المادية التي أمامه تجعله يستغرق أكثر في الصلاة والمناجاة...

ثم يأتي الصباح ويكرر النبي أمام أبي بكر " اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد " وعندما كررها عدة مرات بحرارة تعجب أبو بكر وقال: " يا نبي الله بعد مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك "... فالصحابة إذن أيضًا يعلقون نتيجة المعركة على وعد الله عز وجل...

وفجأة يتهلل وجه النبي ويبدو عليه السرور وينتبه كأنه يفق من مشاهدة شريط قصير يعرض أمام ناظريه.. ثم يخاطب أبا بكر فجأة: (أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله. هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع " الغبار "... والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة...).

وبدأت المعركة وصرعت ثلاثة من أكابر قريش... ومع كل ما

حدث كان النبي عاكفاً على صلاته في الخيمة وكان كلما جاء على بن أبي طالب ليراه يجده ساجداً ينادي الحي القيوم... وفي هذه الجلسة الروحية يذهب النبي في شبه غيبوبة ويأتي له روح القدس جبريل ♠ برسالة عاجلة رداً على ندائه الحار:

قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾} [الأنفال: ٩ - ١٠].

هنا يتيقن النبي أن ألف ملاك مقاتل سوف ينزلون للوقوف في صفه... ولما يعلم النبي صلى الله عليه وسلم العدد الذي سيدخل في معركته تتضح له البشائر العملية للنصر... وكان الله قادراً على أن ينصره بدون ملائكة وبدون إرسال عون... فقد كان قادراً على إهلاك قريش بمرض أو قوة مجهولة... إلخ ولكنه سبحانه وتعالى يريد أن يكافئ عبده ورسوله ومن معه من المؤمنين على ما بذلوه من جهد ومثابرة وصبر وإيمان ورغبة في انتصار دينهم والاستشهاد في سبيل الله... ويبرهن لهم على أن هذا العون من عالم الروح ليس هبة تعطي بدون مقابل وأن هذه الملائكة المحاربة لم تأت للنبي إلا بقوة صلاته وعمق إيمانه وصدق جماعته في إرجاح كفة الحق على كفة الباطل... يريد الله جل وعلا أن يعطي برهاناً خالداً للمؤمنين على أن للصلاة فعلها وللعمل الإيجابي قيمته... فلا عون إذن إلا لمسلم يحمل سلاحه ويسير لمقاتلة أعداء الله ولمسلم مكافح وهب نفسه فداءاً للإسلام ولمبادئ هذا الدين العظيم القيم... ولا مساعدة لمسلم نائم متكاسل يطلب من الله أن ينصره بدون أن يبذل من روحه صلاة وفي جسده كفاحاً...

كما يريد العلي القدير أن يعطي برهاناً واضحاً أنه سبحانه وتعالى يبعث برسول نور كلما قام في الأرض رسول ظلام شريطة أن توجد الرغبة الإيمانية عند أنصار هذا الرسول في مقاومة هذا الظلام، وأن توحد القلوب التي تقف أمامه عامرة بالإيمان وبالروح التي يمكنها أن تقهر المادة...

يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ما يزال يرى صورة الملائكة تسير أمامه... ويهيب بمن حوله بما سمعه ويضيف قائلاً في نشوة إيمانية: "... سيهزم الجمع ويولون الدير... ".

وتحمى المعركة ويقع من يقع ويهرب من يهرب من مشركي وكفار قريش... ويأتي النصر الذي وعد به الله عز وجل رسوله الصادق الأمين...

وعلى ضوء ما وقع من أحداث... وعلى ضوء التفسير الروحي يمكننا أن نقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدير معركة بدر في خيمته كان معه مجلس قيادة روحي، وكانت الموقعة تبدو على ستار الزمن كما تبدو صور المواقع الحربية الآن على ستار الرادار... كانت الأوامر تصدر منه ومن المرشدين الروحيين بناء على خريطة روحية لتنفذ في عالم المادة - وسبحان من أنزل هذا الكلام:

قال تعالى:{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: ١٧].

ويبين العلي القدير جل وعلا مدى فاعلية خلقه من عالم الروح

(وما يعلم جنود ربك إلا هو) يوم بدر إذ يقول تعالى:

قال تعالى:{ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ } [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧].

ويتبين جلياً من هذه الآية أن موقف الجيش الإسلامي والمسلمين من الناحية المادية - أي على مستوى توازن القوى المادية - كان ضعيفاً جداً (أذلة) ولكن النبي صلى الله عليه وسلم طمأنهم بأن الله سوف يمدهم بثلاثة آلاف ملك (منزلين) ولكن لو زاد صبرهم وتقواهم، فالعدد سوف يزيد إلى خمسة آلاف ملك من طبقة أعلى (مسومين) أي مسلحين، ومعنى هذه المعادلة أنه كلما زاد درجة المحارب من الصبر والتقوى والإيمان بالله زادت القوة المساندة له من عالم الروح من حيث العدد أو النوع... وهذا يتفق مع القانون الروحي عند علماء الروح: " الشبيه ينجذب إلى شبيهه " كما يتضح ويتأكد من آخر الآية أن النصر كان من عند الله ليقطع طرفاً من الذين كفروا... وتغليب كفة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي اجتهد في صلاته ودعائه وتبتله وحرصه الشديد على انتصار الدعوة إلى عبادة الواحد الأحد الديان.. واجتهاد وصلوات ودعاء من حوله من المؤمنين واستعدادهم التام للشهادة في سبيل الله والدعوة إعلاء وحدانيته وأحديته " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ودحض أي شرك به على وجه الأرض...

فلم يخطئوا كما أخطأت بنو إسرائيل حينما ظنوا أن الله هو الذي يحارب لهم بينما هم جالسون إذ قالوا لموسى عليه السلام:{فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]... وفي هذا المعنى يقول المقداد لرسول الله يوم بدر: " يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون... ولكن أمض ونحن معك... ".

إذن فإن أهم ما نستخلصه من يوم بدر هو أن الهزيمة أو النصر تتبعان لقانون روحي هو قانون العمل والجزاء..

وانقضت المعركة بقتل أساطين مشركي وكفار قريش أبي جهل... وشيبة... والوليد... وعتبة... وأبي... وغيرهم وازدياد يقين صحابة محمد صلى الله عليه وسلم ورجاله وتابعيه بصحة دعوته وسمو رسالته وعظمة هذا الدين القيم... المكلفين معه بالدعوى إليه والدفاع عنه...

وبعد أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن تجمع جثث قتلى كفار ومشركي قريش وتوضع في حفرة القليب (وهو بئر قديم نضبت منه المياه)... يقف النبي أمام تلك الحفرة معاتباً:

(يا أهل القليب... بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم... كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس... وقاتلتموني ونصرني الناس)... (يا أهل القليب يا عتبة بن ربيعة... ويا شيبة بن هشام... ويا... هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً...)

ووضح جليا من سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه

(... هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً...؟) أن الوعد الذي جاء به جبريل ♠ بوحي من رب العالمين إلى نبيه بالنصر... كان له وعد أو وعيد مقابل أرسل إلى قريش بطريقة ما ولكنهم لم يصدقوه... وسبحان من أنزل هذا الكلام:

قال تعالى:{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود: ١٠١].

* * *